

دراسة في أطروحة الطب العربي في الجزائر

د/جيلالي بلوفة عبد القادر
قسم التاريخ جامعة تلمسان

مقدمة:

اتصف الاستعمار الفرنسي الإستطاني بالجزائر بشدة الاستغلال ، و أثر تأثيرا قويا على الحالة العامة للبلاد ، و ظهر هذا في كل جوانب الحياة اليومية ، فكانت معاناة الجزائريين يومية ومتواصلة ويكفي الإشارة إلى تدهور الحالة الصحية و تفشي الأمراض و الأوبئة في عامة الجزائر والتي تواجد فيها : 81 طبيب في 1835 ليصبح العدد : 85 طبيب بعد مرور سنة أي¹ 1855.

و بعد سنتين أي 1857 ، تأسست مدرسة الطب (الكوليج) في مدينة الجزائر التي بدأت نشاطها بثمانية أساتذة مرسمين و أربع احتياطيين . و كانت تقبل التلاميذ «الأهالي» الذين قضوا سنتين أو أكثر في المدرسة السلطانية (الكوليج الإمبريالي) و لم يصل عدد التلاميذ الجزائريين إلى أكثر من اثنين أو ثلاثة².

و كان الطلبة من أبناء الموظفين و الجنود الجزائريين، و كانت تخصص لهم منحا، هي ليست من ميزانية الدولة، و إنما من الضريبة العربية و تحصل هؤلاء على شهادات لممارسة بعض المهن بالصحة، مثل طبيب مسؤول صحي، صيدلي وركب أدوية من الدرجة الثانية...³

و دخل هذه المدرسة في 1867، جزائريين و هما: علي بن محمد و قدور بن احمد⁴، و لم يتجاوز عددهم: ثلاث طلبة حتى 1882، من مجموع 69 طالب أوروبي.⁵

و كان من بين طلبة هذه المدرسة: بن العربي محمد الصغير (1850-1939) صاحب هذه الأطروحة التي هي موضوع الدراسة و نسعى من خلال الوقوف عند جوانب خفية تخص حياة الرجل و مضمون الأطروحة و قيمها العلمية.

1- سيرة بن العربي محمد الصغير:

ولد بن العربي محمد الصغير في شرشال شهر صفر 1267 هـ /ديسمبر 1850، و هو من أسرة أندلسية الأصل، تعلم بمسقط رأسه مبادئ القراءة و الكتابة و الدين و القرآن حتى سن العاشرة،

ثم انتقل إلى مدينة الجزائر، أين دخل المدرسة العربية الفرنسية ثم مدرسة الطب، و عرف العفة العربية إلى جانب الفرنسية و اليونانية و اللاتينية⁶، و درسها لمتطلبات البحث و من الجزائر، انتقل إلى باريس أين تم دراسته الجامعية بها و حاز على شهادة الدكتوراه في 1884⁷.

و كان للحكيم بن العربي محمد الصغير اخوين، أكبرهم سنا هو محمد الأول، و قد عمل مترجما عسكريا احتياطيا في البلاط التونسي و الثاني هو «قدور» الطبيب و قد مارس مهنة الطب في تونس و قسنطينة⁸.

و لقب بن العربي محمد الصغير، بمحمد الثاني و بالشيخ. قد لقي احترام و تقدير الكثير، وكان يلبس اللباس التقليدي (الشاشية و العمامة و السروال الواسع). و هو اللباس الذي ارتداه أمام لجنة المناقشة .

2- مضمون الأطروحة:

ناقش بن العربي محمد الصغير أطروحة في الطب موسومة بـ «الطب العربي في الجزائر» «la médecine arabe en Algérie» يوم 16 جويلية 1884 بداية من الساعة الواحدة ظهرا، و هذا بكلية الطب بجامعة باريس، و هي مسجلة تحت رقم 1884/291.

و تشكلت لجنة المناقشة من الأساتذة:

- بيكلار (Beclard) رئيسا- و هو عميد كلية الطب بباريس

- مانريو (MANRIOT)

- شارل ناشي نيني (Charles Nachet NENY)

و طبعت نسخ الأطروحة من قبل مطبعة كلية الطب (مطبعة البرت بارونت ALBERT PARENT وكانت المناقشة علنية، و حضرها الأديب الفرنسي فيكتور هيقو الذي كانت تربطه علاقة صداقة معه.

دار موضوع الأطروحة حول طرق علاج الأمراض و الأوبئة (الطريقتين: التقليدية والمعاصرة) و في الأطروحة تقديم عن تاريخ الطب و كذا كيفية علاج الأمراض المنتشرة في بلاد البحر المتوسط .

بدأت الأطروحة بحديث نبوي شريف حول قيمة « الصحة و العافية » و إهداء إلى والديه المرحوم وأقاربه.

في المقدمة، يوجه بن العربي كلاما مخاطبا فرنسا بقوله : « هل من المعقول أن نحرم السكان من اكتساب المعارف الضرورية و أن نصفهم بالعنصر المتخلف ؟!!! »

و يضيف :« يمكن للمرء أن يكون له موقف مغاير، أما فيما يخصني و المهنة التي اخترتها، أظن أنني تمكنت، و من خلال استعمال و توظيف تجاربي في ميدان الطب و الصيدلة، أن أتوصل إلى مستوى، و إن لم يكن جد راق، فهو مقبول، و بذلك نستطيع (أي العرب الجزائريون) أن ننساهم في ترقية و تطوير الطب الفرنسي.

تمحور الفصل الأول حول « تاريخ الطب العربي»، و فيه تطرق بن العربي محمد الصغير إلى مسيرة أطباء مشهورين في المشرق و خاصة في المغرب و منهم عبد الرزاق الجزائري (ق 18) الذي تخصص بتجاربه و كتبه حول المستحضرات النباتية، و الطب النباتين و حول الوقاية الصحية.

أما الفصل الثاني، فقد حصصه لن العربي إلى الطب العربي الحالي» و فيه ذكر الأمراض وعلاجها، و تكلم عن منافع الحمامات المعدنية و المياه والحنة (Henné) و طرق علاج الصدوع» الجبيرة» (Plâtre) ... و خص جزء كبير من الفصل للحديث عن الوقاية الصحية، و طريقة معالجة الجدري (la variole) المنتشر منذ عهود غابرة في المغرب العربي. و في هذا الصدد، فقد وقف صاحب الأطروحة ضد الإشاعات بان « الجزائريين هم حملة مرض السفيليس - الزهري (Syphilis) المعدي، و قال بان إحصائيات كل الدول المتحضرة و الصادرة عن مصالحها الطبية و عيادتها المتخصصة تؤكد بان المرض المعدي، و الذي يحق لنا أن نسماه بالداء الفرنسي، النابوليتان الاسباني الألماني، البولندي، التركي ليس هو مرض خاص بأهالي شمال إفريقيا⁹».

وفي الفصل الثالث، تطرق صاحب الأطروحة إلى الطب الطبيعي و التداوي بالأعشاب وأكد في البداية على قدم هذه الممارسة في الجزائر، و ذكر منافع « الخروب و الرومان و العنب و كرموس النصارى (le figuier de barbarie) و التمر.

و عدد ، عند ذكر هذه المادة الأخيرة ، فوائد المتنوعة في معالجة أمراض مثل الإسهال و أعطى طرقا لعلاج أمراض مثل السمنة و ثقل الوزن، إذ اقترح نظام غذائي مدته 40 يوم خصص لكل فترة زمنية نوع خاص من الغذاء و جب على المريض العمل به.

و اقترح كذلك، نظام علاج التهاب العيون و هو مرض معدي (Ramda des Arabes) و ذلك بتضمين العين و كي أطراف من الجسم : خلف الرأس و أسفل الرحم والأنف، و إن لم يكن هناك

تحسن بعد ثمان أيام، فيكون هناك علاج طبيعي آخر مبني على مستحضرات طبيعية.

- أما في الفصل الأخير، فكان الحديث عن الطب الشرعي و طب النساء و مسائل تأخر الحمل و حال المرأة عند غياب الزوج و مسألة الحمل المتباعد. قضايا مرتبطة بالعادات و شرف العائلات و الإرث...

و أثناء المناقشة، خاطبه رئيس الجلسة بقوله: «ها نحن أرجعنا لكم ما كنا استلفنا من علوم أجدادكم...»¹⁰.

و قد تحصل بن العربي محمد الصغير على شهادة الدكتوراه بدرجة جيد جدا، و ترجمت الأطروحة بعنوان «الطب العربي بعمالة الجزائر» من قبل علي بوشوشة، و طبعت في تونس سنة 1891.

و تكمن قيمتها العلمية في كونها دراسة في طرق العلاج لأمراض عديدة بعلاج تقليدي و عصري و هي ثمرة مجهود علمي خاص و متميز للجزائري بن العربي محمد الصغير الذي سيكون له بنشاط آخر بعد هذا التاريخ و هو في دخوله الحياة السياسية.

3- جوانب من مواقف ابن العربي محمد الصغير :

قبل مناقشة هذه الأطروحة، زار بن العربي محمد الصغير الأندلس في 1883، «و هناك (كما قال) جدد إسلامه¹¹» و زار قرطبة و غرناطة و اشبيلية، و كان إعجابه بحضارة الأندلس أكثر و اشد من إعجابه بالحضارة الفرنسية.¹²

بعد رجوعه من باريس إلى الجزائر في 1884، اشتغل طبيبا و دخل الحياة السياسية المحدودة، و هي النيابة في مجلس بلدية مدينة الجزائر في 1888 في عهد الحاكم العام للجزائر لويس تيرمان (Louis TIRMAN).

و كان له مواقف سياسية و هي :

أ - وقوفه ضد مشروع «دورودون : المهندس الفرنسي» الذي كان يرمي إلى تهديم الجامعيين : الجامع الكبير و الجامع الجديد و بناء فندقين مكانهما¹³.

ب - و في 1891، وقف ضد إلغاء المحاكم الشرعية و تعويضها بمحاكم صلح يرأسها قضاة غير مسلمين. و استنكر بن العربي هذا و في المجلس النيابي و في الصحافة. و شكل البرلمان الفرنسي لجنة تحت رئاسة جول فيري «Jules FERRY» للبحث في الموضوع.

و من جهة أخرى ، فوض النواب الجزائريون الدكتور بن العربي للتفاوض مع اللجنة البرلمانية في باريس ، و لهذه الغاية سافر مع الشيخ محمد بن رحال (1857 - 1928) و قدما تقرير عام شامل و تضمن عدة مطالب منها جاء : « قصد تعميم التعليم ، لا بد من إحياء مدرسة الطب في الجزائر لتؤهل أطباء من الجزائر لمعالجة الحضر و البدو ، الذي هو في حالة ¹⁴ يرثي لها...»

خاتمة :

من خلال الأطروحة ، أكد بن العربي محمد الصغير على أحقية و أسبقية الطب العربي في الجزائر ، و قيمة الطب العربي التقليدي و اعتمد سرد و سائل علاج وقائية لعدة أمراض . و م تخلص كتاباته من إظهار مواقف سياسية صريحة في دعوته فرنسا إلى تصريح موقفها اتجاه « الجزائريين الأهالي » و العمل على تحسين حالهم .

كان بن العربي محمد الصغير صوت الشعب المضطهد في عدة مناسبات ¹⁵ . و صف الشيخ محمد السعيد الزهري بشدة تمسكه بدينه و قوة إيمانه و محافظته على تقاليده ¹⁶ ... و كان من بين الأطباء البارزين ، أمثال قدور بن العربي ، بلقاسم بن تهامي ، علي بوضربة زروقة بن أحمد بن بريهمات ... متجانسة ، و معظمهم كان يؤمن بالاندماج ¹⁷ . توفي يوم السبت 6 رمضان 1358هـ الموافق ل 20 أكتوبر 1939 ببوزريعة ، و دفن في اليوم الموالي بمقبرة القطار بالجزائر .

الهوامش

1 - Hocine BENKADRI , santé en Algérie - prestations de soins ou prestations de services ? El-Watan, Alger, 25/10/2004

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، ج7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 275.

3- نفسه، ص 276.

4- جريدة المبعثر ، 1967/10/03.

5 - Revue Africaine , 1905 , P 408414-.

6- مؤلف جماعي ، معجم أعلام الجزائر في القرنين 19 و 20 ، ج1، منشورات مخير الدراسات التاريخية و الفلسفية ، جامعة قسنطينة ، مارس 2002 ، ص 93 .

7 - لم يكن تمنح الشهادات العليا إلا في فرنسا ، حتى تأسيس جامعة الجزائر في 1909 .

8 - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج 4، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982 ، ص 456.

9- سليمان بن عربي ، الدكتور بن العربي ، جريدة أحداث الجزائر ، أسبوعية ، الجزائر، 14/09/1988 .

- 10- مؤلف جماعي ، نفس المرجع ، ص 93 .
- 11 - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي ، نفس المصدر ، ص 455 .
- 12 - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ط 1، ج4، ص 226 .
- 13- عبدالرحمن بن جيلالي ، نفس المصدر ، ص . 458 .
- 14- نفسه ، ص 460.
- 15 - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج 4 ، ص 226 .
- 16 - مجلة المتقطف المصرية ، القاهرة ، 1929/11/01.
- 17- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 7 ، ص -266 265 .